دار المشرق

المشرق الرقميّة

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثاني، حزيران ٢٠١٣

سيّد قطب: حياته ونظرته إلى الآخر

يوسف عبد النور اليسوعيّ*

تتَّضح نتيجة الربيع العربيّ في انتقال الجماعات الإسلاميّة من مربّع المعارضة إلى سدّة الحُكم في مصر وتونس. ولـمّا كانت مصر مهد جماعة الإخوان المسلمين أولى الجماعات التي تبنّت المشروع الإسلاميّ في العصر الحديث، فمن الضروريّ محاولة فهم هذا المشروع من خلال التعرُّف على مفرداته. من هنا تأتي أهمّيّة الحديث عن كتابات سيّد قطب الذي أسَّس هذا المشروع، وغاية المقال تسليط الضوء على حياته وأفكاره.

حياته

وُلد سيّد قطب في إحدى قرى أسيوط بمصر العام ١٩٠٦. حفظ **القرآن** الكريم في العاشرة، ثمّ تخرَّج من دار العلوم محصِّلاً الإجازة في فنّ التّعليم. أظهر سيّد قطب حبّه للأدب منذ نعومة أظفاره، إذ صدر له العديد من القصص والأشعار التي ترتكز على الأمور النّفسيّة الاجتماعيّة. وفي العام ١٩٤٨م غادر سيّد قطب مصر إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بغرض دراسة مناهج التعليم الحديثة. هناك بدأت تظهر للمرّة الأولى اتّجاهات أصوليّة في فكره السياسيّ.

* دارس في الرهبانيّة اليسوعيّة. مجاز في الفلسفة والحضارة العربيّة.

وهكذا نستنتج أنّ هذه البعثة مثّلت نقطة تحوّل في تطوّره الفكريّ والسياسيّ، ذلك أنّ إقامته تزامنت مع نشأة إسرائيل، كما شهدت أيضاً هذه الفترة نهاية الحرب العالميّة الثانية وبداية الحرب الباردة، وتمّ حلّ منظّمة الإخوان المسلمين ومقتل حسن البنّا.

من كتابه **أمريكا التي رأيتُ** يمكننا حصر ثلاث خصائص كان لها أثرٌ بالغٌ في رفضه كون الغرب نموذجاً يُحتذى به، ألا وهي: الماديّة، والعنصريّة، والإباحيّة الجنسيّة. وقد تركت هذه الرّحلة عند سيّد قطب اعتقادًا راسخًا أنّ الإسلام هو أقوى عقيدةً وإيديولوجيا، وأنّ العمل لإحياء نهضة إسلاميّة واجب، وأنَّ الغرب يضمر الحقد للإسلام. وهكذا قادته الخبرة في أمريكا إلى استعداده للتّعاون مع الإخوان المسلمين. وفي العام ١٩٥٣، عُيِّن رئيساً لتحرير المجلّة الأسبوعيّة للجماعة، ثم عُيِّن رئيس قسم الدّعوة، وعضوًا في مجلس الإرشاد. وقد قام سيّد قطب في بداية حركة الضبّاط الأحرار العام ١٩٥٢ بدورٍ مميّز، لكنّه سرعان ما اختلف مع جمال عبد الناصر عندما دعا قطب إلى تطبيق الشّريعة الإسلاميّة، وكان هذا سببًا في اعتقاله مرّاتٍ عديدة. صار القرآن في فترة اعتقاله مرجعه الفكريّ الوحيد، إذ وضع سيّد قطب في أثنائها تصوّره عن مدينة فاضلة تُبنى على الشّريعة الإسلاميّة، ودعا إلى تكوين منظّمة عسكريّة للدّفاع عنها، مروّجاً لشرعيّة استعمال القوّة ضد عنف الحكومة. وقد استُخدِمَت أفكاره لإدانته، وتمّ الحُكم عليه بالإعدام، فقامت الحكومة بتنفيذ هذا الحكم بالرغم من كلّ الانتقادات الشّعبيّة والعالميّة.

المجتمع الإسلاميّ كما يراه سيّد قطب في خطابه

توصّل سيّد قطب أثناء فترة سجنه إلى رفض كلّ النّظم السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة العالميّة، داعيًا إلى إنشاء الحركة الإسلاميّة التي ينتج منها ميلاد المجتمع الإسلاميّ. يرى سيّد قطب أنّ البشريّة بسبب هذه النُظم عادت إلى **الجاهليّة** التي كانت عليها قبل مجيء الرسول. والمقصود بالجاهليّة بحسب

سيّد قطب: "هو كلّ مجتمع غير مسلم... لا يُخلِص عبوديّته لله وحده، متمثّلة هذه العبودية في التّصور الاعتقاديّ، وفي الشّعائر التّعبديّة، وفي الشّرائع القانونيّة". نتيجة لذلك يتنبّأ سيّد قطب بقرب زوال الحضارة الغربيّة المهيمنة بسبب إفلاسها في عالم القيم. ويرفض الإسلام في رأي الكاتب النّظام الرأسماليّ الغربيّ بسبب الرّبا والاحتكار، وبسبب ما نشأ عنه من قيام قوميّات منحت نفسها حقّ احتلال الدّول الضّعيفة واستغلالها. كما يرفض، على مستوى آخر النّظام الشيوعي الذي بنى وجوده على إنكار وجود الله. ويشير في كتاباته إلى أنّ الماركسية اجتذبت عدداً كبيراً من الشّعوب كافّة لما تحمله من فكرة تجسّد طابع العقيدة، إلّا أنّها تناهض الطبيعة البشريّة، ولا تنمو إلا في بيئة ألفت النّظام الدّيكتاتوريّ. يحاول سيّد قطب هنا تصوير صراع بين الماديّة وتُمثُّلها الرأسماليّة الغربيّة والاشتراكيّة، والروحانيّة التي يُمثُّلها الإسلام. ويتوقّع من ناحية أخرى أنّ ينتهي الصّراع القائم بين الرّأسماليّة والاشتراكيّة بانتصار المعسكر الاشتراكيّ لأنّه يُخاطب الطّبقات الفقيرة المُستغَلَّة، لكنّه يرى أنّه من نتائج هاتَيْن العقيدتَيْن غياب العدالة.

يطرح قطب بعد ذلك قيامِ مجتمعٍ إسلاميّ بديلًا وحيدًا للأنظمة كافّة. ويتناول في كتاباته شروط تحقيق هذا المجتمع الذي يقوم قبل كلّ شيء على قاعدة العبوديّة لله وحده، ومن ثمّ يبني هذا المجتمع حياته على تلك القاعدة. والوسيلة الوحيدة لتحقيق العبوديّة لله هي تطبيق الشّريعة الإسلاميّة في نواحي الحياة كافّة، فهو مجتمع يفرض منهجه الخاصّ بدون أيّ تنازل أو توافق مع التّصوّرات الجاهليّة القائمة. هذه الشّريعة الإسلاميّة تُستَمدُّ بديهيًّا من القرآن الذي يصير النّبع الوحيد ومنه تُستقى العقيدة والعبادة، ويؤسَّس النّظام السياسيّ والأخلاقيّ ويُكتَب التّاريخ. أمَّا الهدف العمليّ الأوّل لهذا المجتمع فهو القضاء على الجاهليّة، وإحلال الوجود الإسلاميّ مكانه.

موقف سيّد قطب من الآخر

يرى سيّد قطب أنّ المجتمع الإسلاميّ الذي يدعو إليه هو مجتمع عالميّ، لا يقوم على القوميّة أو العنصريّة. فهو "مفتوح لجميع بني الإنسان، بدون النّظر

إلى جنس أو لون أو لغة، بل من دون نظر إلى دين أو عقيدة". ويؤكّد كاتبنا أنّه مجتمع قادر على جمع الألوان كافّة تحت حمى الإسلام، من خلال سعيه إلى إزالة الحواجز الجغرافيّة والقوميّة. وبذلك يقضي على الاستعمار والاستغلال، ويحافظ في الوقت نفسه على مفهوم الوطن بمعنى التّعاون والتّآخي.

يقرّ الإسلام داخل هذا المجتمع بحقّ حريّة العبادة لأصحاب الدّيانات المخالفة، وعلى المسلمين الدّفاع عن هذا الحقّ، وبذلك يستطيع الجميع التّمتُّع بحريّتهم الدّينية. ويُسمَّى الذين يدخلون في ظلّ هذا النّظام من غير المسلمين بالذميِّين "أي الذين أعطاهم الإسلام ذمّته أن يحميهم، ويدفع عنهم كلّ اعتداء خارجيّ، وأن يكفل لهم في الدّاخل حرمة أرواحهم وأموالهم وعقائدهم، ويسمح لهم بمزاولة نشاطهم الاجتماعيّ والاقتصاديّ في الحدود التي لا تُفسد نظام المجتمع". هؤلاء الذمّيون يجب عليهم دفع الجزية التي يعادلها سيّد قطب بالزّكاة عند المسلمين، وهي فرض عليهم وحدهم. أمّا الجزية فهي لقاء الدفاع عن غير المسلمين وتأمين حريّة نشاطهم الاقتصاديّ داخل المجتمع الإسلاميّ.

وحينما يكون الآخر هو المجتمع غير الإسلاميّ، فالأمّة الإسلامية- في نظر سيّد قطب- تخوض معركة مستمرّة من أجل حمايتها، والدّفاع عن قرآنها وعقيدتها. وأوّل أعداء هذه الأمّة هم اليهود، لذلك فإنّ موقف سيّد قطب منهم واضح في كتاباته، إذ يقول: "كلّ من يصرف هذه الأمّة عن دينها وعن قرآنها، فإنّما هو من عملاء اليهود، سواء عرف أم لم يعرف أراد أم لم يرد". فهو يرى أنّ كلّ عدو لهذه الأمّة هو يهوديّ منذ عهد الرسول والصحابة حتّى يومنا هذا. ويظلّ هدف اليهود الأوحد هو القضاء على هذه الأمّة، من خلال القضاء على عقيدتها الإيمانيّة، سواء بالتّشكيك، أو نثر الشّبهات قديمًا، وحاليًّا من خلال جيش من العلماء هدفه زعزعة العقيدة في النّفوس.

أمّا في كلامه عن المسيحيّة الأوروبيّة فهو يستخدم لفظة "الصليبيّين"، مُعتبرًا أنّ الحروب الصليبيّة لم تنتهِ إلّا عند المسلمين. ويؤكّد هنا أنّ المجتمع الأوروبيّ المسيحيّ هو الذي بدأ الحرب ضدّ الإسلام. فالدّين الإسلامي هو الخطر الحقيقيّ الذي يهدّد المسيحيّة في أوروبّا، لذلك فهم يبذلون جهوداً تبشيريّة

ضخمة من أجل نشر الدين المسيحيّ في العالم كلّه، لا من أجل نشر الإيمان، لكن من أجل وقف الزحف الإسلاميّ. نضيف إلى ذلك، أنّه يرى أنّ المجتمع الغربيّ المسيحيّ لا تحكمه المسيحيّة، لأنّ المسيحيّة لم تتضمّن شريعة تستطيع تنظيم المجتمع عن طريق القانون. وبذلك وقفت العقيدة في عزلة عن المجتمع، واعتمد الغرب على القوانين الوضعيّة وحدها.

إستنتاجات ختاميّة

إنَّ المجتمع الإسلاميّ الذي أبرزه قطب، لا يُعدّ سوى مدينة فاضلة يتمنّاها سيّد قطب كما يتمنّاها كلّ إنسان، وقد اختار الإسلام ليصوّر من خلاله هذه المدينة. وبعد استعراض أفكاره نجده يعتمد بصورة كليّة على القرآن، ولا نقرأ أيّ مرجع تاريخيّ أو علميّ يدعم فكره، وهذا ما يقلّل من قيمة بحثه. ذلك أنّه يتكلّم دائمًا في المطلق: الإسلام هو الحقّ المطلق، والآخر هو الجاهليّة المطلقة. لكن هل نستطيع على هذه الأحكام المطلقة أن نقيم مجتمعاً عادلاً يحترم الآخر؟ إنّه يضع للمجتمع الإسلاميّ صورةً متكاملة، متجاهلًا التّاريخ والواقع. ويكفينا هنا أن نعود إلى أقرب المجتمعات التي بُنيت على الشريعة الإسلاميّة، وهي دولة أفغانستان وما ارتكبته حكومتها من ظلم بحقّ المرأة، وتحطيم تماثيل بوذا، والقضاء على كلّ أشكال الحريّة الدّينيّة. كما يتنبَّأ قطب بسقوط الحضارة الغربيّة، وانتصار الشيوعيّة، وقد حدث العكس تماماً، إذ سقطت الشيوعيّة، في حين تتّجه أوروبا نحو الوحدة بعد قرون من الحروب. تلك النتائج تهزّ أركان فكر سيّد قطب، وتوضّح ضعف استنتاجاته، بالرغم من الشّحنة العاطفيّة التي تحملها كتاباته. وأخيرًا، فإنّ مفهوم الذمّة يحمل إهانة واضحة، لأنّه ينظر إلى الآخر ضيفًا عاجزًا يدفع من أجل حماية نفسه، وليس شريكًا في الوطن يساهم في نموّه وتطويره، بل يجبره أن يطيع شريعة مخالفة لشريعته. ناهيك عن فرضيّته التي تقول بضرورة أن يكون المواطن دائمًا من المؤمنين، فلا مكان في هذا المجتمع لغير المؤمنين.